الثورة الأندلسية الكبرى على الأمبراطورية الإسبانية (١ من ٣)

الفترة الأولى: ١٥٦٨-١٥٧٠

عادل سعيد بشتاوي *

■ ماتت الملكة إيزابيلا بعد سنتين من إصدار مرسوم عام ١٥٠٢ الذي اعتبر كل الأندلسيين الذين بقوا في مملكة غرناطة منصّرين رسمياً. وبدأت السلطات الدينية والمدنية تدريجاً تحويل المساجد إلى كنائس أو هدمها وحظر الصلاة ورفع الأذان والصوم والشعائر الإسلامية الأخرى. لكن الأندلسيين تجاهلوا المرسوم عموماً واستمروا في ممارسة عباداتهم وعاداتهم في بيوتهم. وفي عام ١٥٠٨أصدر زوج ايزابيلا الملك فرناندو مرسوماً جديداً حظر على الأندلسيين التخاطب بالعربية وارتداء الملابس الأندلسية وممارسة التقاليد والعادات العربية، لكن الأندلسيين تجاهلوا هذا المرسوم أيضاً. ولم تجد السلطات جدوى من محاولة تطبيقه خوفاً من إثارة الأندلسيين في مرحلة تطلبت من فرناندو تكريس جهده ووقته لعزل الفرنسيين وتثبيت ممالكه الأرغونية في البحر الأبيض المتوسط والعالم الجديد، خصوصاً أن التشدد كان سيلحق أضراراً بالغة بالنبلاء والإقطاعيين الذين وظّفوا عدداً كبيراً من الأندلسيين في مزارعهم ومصانعهم.

وفي التاريخ الإسباني تركيز مُلفت على إبراز تكتلك الملوك وشدّة تدينهم يجد قمته في إيزابيلا الكاثوليكية، إلا أن المؤرخين الإسبان يفضّلون تعميمه أيضاً على زوجها فرناندو. ويُقال إن هذا الملك كان يهجس في آخر أيامه بحلم تحقيق السلام في أوروبا والإنطلاق بعدها بحملة صليبية هائلة لإحتلال مصر (مركز القوة العربية الإسلامية آنذاك)، ثم الاتجاه بعد ذلك إلى القدس لاحتلالها هي الأخرى. ولطالما حشد فرناندو الجيوش والاساطيل التي ستتوجه إلى المغرب ومصر والقدس وانفق عليها من الضرائب التي كان يحصّلها من الإسبان بموافقة البابا فإذا بها تغير مسارها في اللحظة الأخيرة وتشتبك مع الفرنسيين الذين بقوا أخطر أعداء قشتالة يوم مات فرناندو عام ١٥١٦. ووقعت مسؤولية إعداد البلاد لاستقبال حفيده كارلوس على الكردينال خيمينس لكنه مات بعد سنة ودخلت البلاد حقبة من الاضطرابات التي تحولت إلى ثورة مدائنية دامية في الأسبوع الأخير من أيار(مايو) عام ١٥٢٠.

وانقسمت المدن الإسبانية في تلك الفترة بين مؤيدة لعودة كارلوس ومعارضة. وكانت غرناطة وعدد آخر من المدن في الجنوب من الجماعة الأولى فحضّ أهلها الأندلسيون كارلوس على العودة إلى البلاد واستلام مقاليد الحكم في حين لم ترد مدن كثيرة غيرها رؤية وجه كارلوس مرة أخرى.وفي الوقت نفسه الذي اندلعت ثورة أهل المدن في قشتالة كان أهل مدن مملكة أرغون يشعلون نيران ثورة مشابهة لكن لأسباب مختلفة تماماً. ففي السنة التي سبقت اندلاع الثورة في بلنسية صرف الجنود الأسلحة لبعض الجماعات للمساعدة على حمايتها من هجوم توقعت السلطات قيام الأسطول العثماني بشنّه فساد المدينة الخوف والاضطراب والقلق. وفي صيف ذلك العام (١٥١٩) ظهر عدد من حالات الإصابة بالطاعون في بلنسية فهرب المسؤولون والجنود منها، وشكّل بعض السكان مجموعات سُميّت مجموعات «جرمانية» أو «الأخوة» تسلمت السلطة وبدأت توسيع نفوذها في الأرياف. ويُقال إن حيّاكاً اسمه خوان لورينك تسلّم قيادة هذه المجموعات وفكّر بتحويل بلنسية إلى جمهورية مدائنية على غرار جمهورية البندقية. ولم يحقق لورينك هدفه إذ نحّاه زعيم ثوروي اسمه بيريس ووجّه جماعته ضد النبلاء. وبما أن قسماً كبيراً من الأندلسيين كان يعمل لدى النبلاء فقد وضعهم بيريس في صف العداء للثورة والتأييد لعودة الملكية. ورفع بيريس شعاراً شعبياً هو: «اليوم تنتهي أيام النبلاء والكفّار»، وأضحت ثورة بلنسية مركز حركة إصلاح اجتماعي وديني فاقتحم الثوار المناطق التي يسكنها الأندلسيون ونصّروا بالقوة نحو ١٦٠ ألف أندلسي.

وخاف الأندلسيون في باقي مملكة أرغون امتداد ثورة المدن إليهم في ظل التفلّت الحاصل فهرب الآلاف في سفن ابحروا على متنها ليلاً وانضموا إلى آلاف أخرى كانت التجأت إلى الجزائر. واستمر القلق فترة إلا أن الحركة ضعفت بعد ذلك وزادها التطرّف عزلة فتمكن الموالون للملكية من هزيمة قوات بيريس خارج مدينة بلنسية في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٥٢١. وفر بيريس فقبُض عليه أول السنة التالية، وانتهت بذلك ثورة أهل المدن في أرغون مثلما كانت انتهت في قشتالة.

وقدّر كارلوس للأندلسيين تأييده فكافأهم على ولائهم بإلزام نفسه في خطاب استلام عرش أرغون الذي ألقاه خلال الاحتفال الذي جرى في مدينة سرقسطة بعدم التدخل في الشؤون الدينية للأندلسيين متابعاً بذلك السياسة التي انتهجها جده فرناندو ومعظم الملوك الذين سبقوه، ثم تغيّر الوضع بسرعة بعد نهوض حركة الإصلاح اللوثرية. ففي الفترة بين ١٥٢٣ و١٥٢٥ نمت في زوريخ حركة معادية للبابوية ما لبثت أن اتسعت لتشمل أقساماً من المانيا والنمسا. وبدأ انتشارها يشكّل تهديداً حقيقياً لسلطة كارلوس في أوروبا وخسارة محتملة للضرائب التي كان يحصّلها من الألمان والهولنديين فزاد اعتماده على محاكم التحقيق كذراع ضاربة أخرى تُضاف إلى الذراع العسكرية. وتحركت الكنيسة القشتالية محلياً فبدأت مرحلة جديدة من التشدد والضبط طاولت، خصوصاً الأندلسيين الغرناطيين وأفرزت مرسوماً صدر عام ١٥٢٥ أكد محظورات مرسوم عام ١٥٠٨ وأضاف إليه محظورات جديدة. إلا أن التطوّر الأبرز بعد ذلك كان شروع الكنيسة وعمّال محاكم التحقيق في تعميد مجموعة كبيرة من الأندلسيين قسراً، ثم اصدر كارلوس مرسوماً حظر على الأندلسيين ختان الأولاد وطلاء الأيدي بالحنّاء وامرهم بأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وطهو لحم الحيوانات التي تموت ميتة طبيعية من دون ذبحها، وغير ذلك الكثير. وفي عام ١٥٢٩ شهدت غرناطة حادثاً مروّعاً حين أحرقت السلطات المدنية أول مجموعة أندلسية بتوصية من محكمة التحقيق في غرناطة فدبّ الرعب في قلوب الأندلسيين وفرت أعداد من أهل غرناطة إلى الشمال، واختلطت بسكان مدن قشتالة وأرغون. وجرت مفاوضات بعد ذلك بين زعماء غرناطة ومستشاري كارلوس انتهت إلى الاتفاق على تخفيف الضغوط عن الأندلسيين لقاء دفع مبلغ ٨٠,٠٠٠ دوقة سنوياً إضافة إلى ضريبة عُرفت باسم «ضريبة الفرضة» مقدارها ٢٠,٠٠٠ دوقة سنوياً سُمح للأندلسيين بعد تسديدها التخاطب بالعربية وارتداء ملابسهم الأندلسية مدة ٤٠ سنة. وقدم الأندلسيون الرشاوى للسلطات المدنية وبعض عمال محاكم التحقيق فخفّ التضييق والملاحقة وأضحت حياة أهل مملكة غرناطة بعد ذلك على قدر معقول من الاحتمال.

ولم يستمر هذا الوضع طويلاً ووجد الأندلسيون أنفسهم جزءاً من صراع دولي قابلت فيه أمبراطورية كارلوس الخامس أمبراطورية ماثلتها أو تفوّقت عليها هي الدولة العثمانية. فبين عامي ١٥١٢ و١٥٢٠ اجتاح العثمانيون سورية والحجاز ومصر. ودخل سليمان الثاني بعد ذلك بسنة مدينة بلغراد واستسلم لقواته بعد سنة أخرى فرسان القديس يوحنا الذين سيطروا على جزيرة رودس، وتحكّم بالتجارة التي كانت لجنوة والبندقية، ثم انهارت هنغاريا عام ١٥٢٦، واقترب العثمانيون من حدود ممالك كارلوس الخامس في النمسا وحاصروا عاصمتها فيينا للمرة الأولى عام ١٥٢٩. وفي الجزائر أسس الأخوان عروج (أروج) وخير الدين بربروسا (أي ذي اللحية الحمراء) دولة تصدّت لإسبانيا فقتل الإسبان عروجاً في معركة تلمسان عام ١٥١٨، فيما طلب خير الدين (١٤٧٥-١٥٤٦) زيادة الدعم العثماني وتمكن من هزيمة الأسطول الإسباني بعد عام من مقتل أخيه. ومن المراكز الجزائرية اعترضت سفن بربروسا سفن كارلوس الخامس وأغارت على مالقة وبلنسية وقادس، ثم اتسع نطاق هذه الحملات بدعم ملك فرنسا فرانسيس الأول لتشمل ممالك إسبانيا في إيطاليا أسر خلالها الألوف من القشتاليين والأرغونيين والصقليين والنابوليتانيين (أي أهل مملكة نابولي).

وفي المراحل التالية كان الأندلسيون يدفعون ثمن نجاح الهجمات على الأساطيل الأسبانية والأرغونية والإيطالية تارة، ويدفعون ثمن تقدم حركة الإصلاح الديني في أوروبا تارة أخرى.

وفي جو هذا الصراع الدولي والديني الواسع الذي كان كارلوس الخامس مركزه الأول، لم تعد الضرائب التي يدفعها الأندلسيون مجدية ومثلها الرشوة أو إظهار الولاء والتصرف كقشتاليين طيبين. وكانت حروب كارلوس عالية التكاليف، وكانت الكنيسة القشتالية في حاجة إلى مصادر تمويل للإنفاق على عمّالها ومبانيها فبدأت في الأربعينات والخمسينات من القرن السادس عشر عمليات واسعة النطاق لمصادرة أملاك الأندلسيين بدعوى انها الطريق الوحيد لتصالح الأندلسيين مع الكنيسة حتى باتت أكبر مالك للأراضي في إسبانيا. ولم يشفع للأندلسيين البلنسيين تأييدهم كارلوس ووجدوا أنفسهم يعانون مثل اخوانهم في غرناطة. فبعدما استقرت الأوضاع في بلنسية قدّم الأندلسيون هناك طلباً إلى الكنيسة لاعتبار تنصيرهم الإجباري مخالفة للقوانين والأعراف المعهودة في أرغون وبالتالي باطلاً من أساسه فتشكّلت لجنة كنسية بحثت في الطلب وانتهت إلى أن ثورة المدن في بلنسية باطلة فعلاً لكن التنصير مقبول ولا يمكن الغاؤه تحت أي ظروف.

وهكذا بدأت أحوال الأندلسيين تتغير بسرعة في النصف الثاني من حكم كارلوس الخامس الذي قاد حروباً دولية ضد العثمانيين والفرنسيين والبروتستانت لكنه لم يتمكن من قهر أي من أعدائه الثلاثة فهرب من جبال المشاكل التي واجهته إلى هدوء دير يوست حيث تصومع ومات بعد سنتين من تنازله عن العرش لابنه فيليب عام ١٥٥٦. وعانى الأندلسيون الكثير خلال حكم كارلوس لكن الاضطهاد الحقيقي كان ينتظرهم في عهد خليفته فيليب الثاني الذي ينتمي في تعصّبه وتشدده إلى إيزابيلا أكثر من انتمائه إلى ابيه، ويرتبط تصرفاً ونظرة بالمدرسة القشتالية التي خرّجت توركيماده وخيمينس ودييغو دي اسبينوزا ومانريك.وصار فيليب صاحب ممالك دوليّة عدّة لكنه لم يترك قشتالة يوماً واحداً، وكان قشتالياً وكاثوليكياً حتى العظم فأنفق أمواله وأموال قشتالة وذهب وفضة مستعمراتها في العالم الجديد على مقارعة أعدائه الثلاثة: البروتستانتية والإسلام وفرنسا، لكنه مات وكلٌ من الإسلام والبروتستانتية وفرنسا أقوى مما كانوا عليه في أي يوم من أيام حياته. ولم يترك فيليب الثاني للأندلسيين أي خيار فاحتكموا الى الثورة في عهد إيزابيلا وإلى الثورة احتكموا مُجبرين مرة أخرى.

حي اندلسي في مدينة قلعة ايوب الشمالية

اماكن اقامة الاندلسيين (١٦١٨)

* من أسرة «الحياة»، وهذا جزء من الفصل الثالث في كتاب «الأمة الأندلسية الشهيدة» الذي يصدر قريباً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

تذكير بحقائق قرآنية

■ في الوقت الذي أغفل الناس فيه حقيقة الدين إغفالاً تاماً، باعتباره دعوة للاستقامة الفكرية التي تؤدي الى وحدة الهم الانساني باتجاه الخير العام الرافع نحو تمام القوام البشري، فجعلوا تنوّع الشرائع والمناهج والمذاهب الذي قصده الله لكل أمة بحسب عقليتها وطرق تفكيرها وتعبيرها، لهداية جميع الناس، مادة للاختلاف العدائي التنازعي الذي نراه يستشري في كل مكان مغيِّراً أهداف الدين باسقاط أهواء المدّعين قيادة أهله عليه، مما وصل به الى حد التضاد مع مقاصده الحقيقية. لا بد من التذكير اذن بحقائق قرآنية تكشف هذا التضليل انفاذاً لقوله تعالى لرسوله المبين أن يذكر الناس بالقرآن لأن الذكرى تنفع المؤمنين.

الحقيقة الأولى هي ان رسالة الله واحدة لجميع البشر جاءت في كل الكتب التي أُنزلت الى الأنبياء: وهي اقامة الدين وعدم التفرّق فيه بأمره لنا أن نؤمن بما أُنزل إلينا أي القرآن وما أُنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين سواء عرفناهم أم لم نعرفهم. وأمرنا أن لا نفرق بين أحد منهم، وعندها نكون قد أصبحنا من المسلمين.

وهكذا فالرسالة السماوية بحسب القرآن الكريم غير محصورة في من ذُكر اسماؤهم من الأنبياء، وانما جاءت الأنبياء بعدد الأمم السابقة في الأرض. وإذ كان الرسول العربي المبين هو خاتم هؤلاء الأنبياء، فقد أُمر بالحفاظ على شرعهم كما هي أي مصدّقاً لكتب السابقة التي حملت هذه الرسالة كما هي ومؤتمناً عليها. لأن المهيمن في اللغة هو المؤتمن المؤيمن أي الشاهد والأمين والمؤتمن. وذلك لأن الله تعالى قد قصد تنويع الشرع والمناهج والألسن لتتلاءم رسالته مع عقليات الشعوب. وقد كان هذا التنوع امتحاناً لأهل هذه الشرائع فيما إذا كانوا سيكتشفون وحدة الرسالة من خلاله فيتحدوا على الخير، أم أنهم سيحولونه الى مادة للاختلاف والعدائية والتنازع. وهذا ما أوضحه قوله تعالى في ذات الاية. وعليه كان أمره للجميع في نهاية الآية أن تسابقوا الى فعل الخير واتركوا أمر الخلاف بينكم في الشرع الى الله ينبئكم به عندما تعودون إليه. وهي الكلمة التي لولا أن سبقت من الله لقضي بين الناس في ما كانوا فيه يختلفون.

وإذ علم الله تعالى أن هؤلاء جميعاً بشر تسوقهم أهواؤهم الى الخلاف والتنازع فتحرفهم عن حقيقة الدين، فقد أنذرهم باعتبار هذا الاختلاف هو بغي بينهم. فالاختلاف بسبب الدين بغي لا يرضاه الله تعالى. ولكي يكون هذا الأمر واضحاً لأهل آخر الشرائع السماوية، بيّن لهم أن الاسلام الذي يعني ترك عبادة الأوثان وملء التسليم لله والإتكال عليه لا يخصهم وحدهم، بل هو صفة لأهل كل شريعة سماوية سبقت، ولكل من يؤمن بالله. ومن ذلك جواب أبناء يعقوب لأبيهم عندما سألهم عما يعبدون من بعده وهو أنهم يعبدون الله إلهاً واحداً وهم له مسلمون. وقد كان قوم سليمان من المسلمين أيضاً، والحواريّون تلاميذ المسيح يقولون أنهم آمنوا بالله وطلبوا من الناس أن يشهدوا بأنهم من المسلمين. بل حتى ملكة سبأ أعلنت أنها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين. فهل يعي المسلمون هذه الحقيقة القرآنية؟ وهل يعي الناس جميعاً موقف القرآن هذا منهم، فيكون هنالك محو للتضليل المفرّق بين البشر ودعوة للحوار معهم بقصد الوصول الى وحدة الأم الإنساني القائمة على وحدة الرسالة السماوية التي جاءت بشرائع ومناهج متنوعة متشابهة أكد القرآن هداية أهلها جميعاً. وتساءل أبو اسحق عما إذا كان للإيمان مثل غير الإيمان. دون أن يلاحظ أن النص هو فإن آمن الناس بمثل ما آمنتم به وليس بمثل إيمانكم. ومثل ما آمنتم به هو الشرائع الآخر التي تحمل ذات الرسالة فتماثل الشريعة القرآنية، وان اختلفت عنها في الأغراض أي في النهج والأسلوب واللغة. والرسالة واضحة وهي الإيمان بالله والعمل الصالح يأخذ بها من يشاء فيكون من المهتدين. وهو قول مطلق لا يخص أهل شريعة معينة، ولا يخص المنتمين بهوياتهم الى هذه الشرائع. وتتابعت الآيات بالمعنى ذاته في أكثر من ثمانين موقع في القرآن الكريم. وهي آيات تفصلُ في المسألة فصلاً مطلقاً، بأن هؤلاء جميعاً مهتدون مسلمون، دخلوا في الإسلام أو النصرانية واليهودية أو في أي دين آخر أم لم يدخلوا. وهكذا يكون القرآن قد فتح صدر الإسلام والهداية واسعاً لكل من اطمأن لوجود الله وعبَّر عن هذا الاطمئنان بالعمل الصالح. والصلاح في القرآن هو الصلاح بحسب معناه في العربية التي نزل بها وهو اللسان العربي المبين، غير ذي العوج، حاملاً أعراف وحكمة العرب، وأصله في اللغة من صلح أخي صفح وصرح وصح وهي تدل على الصفح والصفاء والصحة. ففيها قلب لصفحة الخلاف والعداء، وخلوص من الغش، وعودة الى الصحة عقب حال السماح والنقاء والكمال. «والصلاح: ضد الفساد». وإذا كان الفساد هو طريق النقص والزوال، فالعمل الصالح هو مزيل النقص والفساد سواء كان نقصاً وفساداً في وحدة المجتمع الانساني، بالتصالح، أو نقصاً في الكمال البشري، بالرفع نحو هذا الكمال الذي هو القوام الإنساني حسبما خلقه الله في أحسن تقويم أي في أحسن صورة. وهذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهذا هو الدين القيّم الذي هو الدين الذي تبلغ البشرية به قوامها الذي خلقها الله عليه، وهو أمر منطبق على اشتقاق العرب للقيمة من قام أصل القوام، وجعلهم لها فيما يرفع نحو هذا القوام. وهو قوام عام بدليل اشتقاق تسمية القوم من أصله، وهم من يقوم بهم الفرد فإذا هم يشملون كل من يسهم في ذلك من الانسانية قاطبة، وهي التي نزلت من أجلها الشرائع قاطبة. وإذ كان هذا القوام في اللغة التي نزل بها القرآن، هو «العدل»، باعتباره نقطة التوازن الكمالي والاستقامة هي «اعتدال الشيء واستواؤه». والمستقيم هو الذي لا زيغ فيه عن الحق، «الملة القيمة: المعتدلة. والأمة القيمة كذلك». ومن ذلك كان حقاً وواجباً. ومنه قولهم «لسنا ندعوك أو نبايعك إلا قائماً، أي على حق». «والحق: والواجب» «وحقّ الله الأمر حقاً: أثبته وأوجبه». وذلك لأن الحق في اللغة «هو وقوع الشيء في موقعه الذي هو أولى به». فالعمل الصالح هو الذي يضع الأشياء في حقوقها، عمل حكمة يتم بالعقل الذي يتغلب على الأهواء والشهوات والنزوات. وهو أمر لا يقوم به من يملأ صدره الحقد على أبناء الشرائع الأخرى والطوائف الأخرى، ويناصبهم العداء، تتحكم به أهواؤه فيضل الناس باستغلال الفروق التي وصفها الله بين الشرع والمذاهب، ليحول الدين الى أداة لمصالحه سواء كان من معلمي الشريعة أو من رجال الدنيا، ولأي شرعة انتمى. ولذلك كان القرآن الحكيم لهؤلاء بالمرصاد لكي ينفي عنهم صفة الإيمان والعمل الصالح، لأن هدفهم غير منصب على إقامة الدين الذي أوصى بألا يتفرقوا فيه.

وإذ كانت الحكمة تعني، في اللسان، وضع الأشياء في مواضعها بالعلم واستقامة العقل والعمل مع الحق، كانت دعوة القرآن الكريم الى العقل والعلم الذي ربط بينه وبين الإيمان. وهي الحقيقة القرآنية الثانية التي أردنا التذكير بها. إن الذين أوتوا العلم يعلمون أن القرآن هو الحق من ربهم ويؤمنون به. والراسخون في العلم منهم يقولون انهم آمنوا به وكل ما نزل هو من عند الله. وما يذكر إلا أولو الألباب لأنه آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وذلك لأن أهل العلم هم الذين يميزون الحق من الباطل، وهم الذين يدركون معاني الآيات وأهدافها، لأنهم بعلمهم يفرّقون بين الخير والشر. فالعلم الذي يعطيه الله للإنسان علم عام يشمل جميع قوانين فعل الله في الكون، المسمّات بقوانين الطبيعة. وقد شمل ذلك العلم وتطبيقه الذي به تنال عطاءات الله في الطبيعة لكي يسد الانسان حاجاته ويطوّر حياته على الأرض. وهذا أمر مهم جداً في فهم قصد الله من العلم سواء كان ذلك للسلوك في المحافظة على حقوق الناس، أم لصناعة ما نحتاج إليه في كل ناحية من نواحي الحياة، أم لكونه يكشف عن آيات فعل الله في الكون. فلذلك كان خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض، كل ذلك آيات للقوم الذين يعقلون ويتفكرون. ومن ذلك كانت دعوته للتفكير في خلق السماوات والأرض إذ أن هذا التفكير المتعلق بهذه البدائع يقود لهذه النتيجة، وهو ما يؤكد كون العلم بجميع وجوهه طريقاً للإيمان بالله بمعرفته عن طريق معرفة قوانين فعله في الكون ما دام أنه لا يدرك بذاته. كما أنه طريق للانتفاع بعطاياه في الطبيعة وفي ضبط السلوك الانساني في حدود العمل الصالح. كما يؤكد ان أهله هم أصفياء الله ولولا ذلك لما أعطاهم إياه. ولمّا كان العلم انما يقع على أشياء محددة بأقدارها، فقد هيأ الله المخلوقات له لتمكين الانسان من العلم بها.

وفي تكرار القرآن للكلمات المشتقة من الثلاثيات: بحث، نقب، محص، فحص، خبر وغيرها من طرق الحصول على العلم، بيان للسبيل العلمية المؤدية الى ذلك. وهكذا يبدو كيف أن العمل الصالح الناتج عن الحكمة مرتبط بالعلم، لأن العلم هو الذي يعمل بما عَلِم. وعلم مقلوب عمل في العربية وسبب له عندما نقصد به العمل الصالح، لأن هذا عمل منضبط في حدود ما يؤدي الى بلوغ القوام البشري بالامتناع عن الشر وحبس الفعل والعمل على الحسن. وهو مميز للعمل العقلي حتى أن العقل قد عُرِّف به. والعقل: «الإمساك عن القبيح وضبط النفس وحبسها على الحسن». فالعقل هو وسيلة العلم والعمل الصالح. واهتمام القرآن به تحذير لأهل الجهل والأهواء الذين يتصرفون بغير علم. ولمّا كانت الحرية بنت العقل، فهي مقيّدة بما يقرره خيراً عاماً منزّهاً عن الأنانية لأن العقل لا يدرك إلا الكليات. ولذلك قال العرب «الحر: الفعل الحسن» «والحر من الناس خيارهم وأفاضلهم. وحرية العرب: أشرافهم» وجازت الكلمة من ذلك الى الجيّد والأصيل من كل فاخر، من شعر وغيره. ولذلك كانت الحرية، بمعناها العربي، ذات قوانين أشد صرامة من نير الطغاة.

ومن ذاك يُفهم كيف تتعلق القيم بالفعل الحر لأنه يتم بالصراع مع مطالب القوى الحيوانية التي تشد بالانسان الى أسفل ليتصرف بحسب الهوى فتبعده عن أن يكون في أحسن تقويم أو في أحسن صورة، ولذلك نهى الله النفس عن اتباع الهوى، وهذا الصراع بين العقل وحريته من جهة، والقوى الأمارة بالسوء من جهة ثانية، وهو امتحان الله للانسان، وهو أساس مسؤوليته الذي ميزه عن بقية المخلوقات حتى الملائكة منها. وهو أمر واضح في قوله للملائكة يوم خلقه وجعله خليفة في الأرض. ولمّا اعترض الملائكة على خلافة آدم في الأرض، انما أشاروا الى القوى الحيوانية ذات المطالب الأنانية التي تفسد في الأرض وتسفك الدماء، وجهلوا السبب الذي من أجله فضّل الله آدم، وهو العقل الذي يعلم والحرية التي تختار الخيِّر من هذا العلم فيقوم به العاقل بالصراع مع هذه القوى. وذلك لأن هذا الصراع هو مصدر القيمة في العمل البشري. وهذا ما يفسر قضية تأجيل عقاب إبليس على عصيانه واطلاق يده في إغواء الناس لامتحانهم. وذلك لأنه انما يغويهم بمطالب هذه القوى ذاتها التي تنازع العقل وحريته على التحكم ببني آدم إلا العباد المخلصين منهم. وهؤلاء المخلصون هم الذين تغلّب العقل فيهم على الأهواء والشهوات. أما بقية المخلوقات الخاضعة للتقيد أعفيت من المسؤولية لأنه لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها. والتقيّد بهذه الحكمة واجب انساني عام، وهو الذي أنشأ الحضارات الحديثة في العالم والتي قصّر فيها المسلمون في وقتنا الحاضر، وربما عاداها بعضهم لجهلهم أنها ذات أساس قرآني واضح لا شك فيه ينطبق على كل علم أو فن أو تنظيم سياسي أو اجتماعي أو أسروي. ولأهمية هذا التنظيم الأخير في الحياة، جعلناه الحقيقة القرآنية الثالثة التي نود التذكير بها لبيان ان الحل القرآني بشأنه مفتوح على كل تطوّر، وان كل تفسير مخالف لذلك بعيد عن مقاصد الله في القرآن الكريم وأهدافه في معالجة هذا الموضوع.

غسان عبدالله سكرية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
خمسُ صلوات كتبهنّ الله على العبادِ، من اتى بهن بتمامهنّ كان له عند الله عهدٌ ان يدخلهُ الجنة، ومنْ لم يأت بهنّ فليس لهَ عند الله عهدٌ انْ يدخلهُ الجنة، إنْ شاءَ عذّبهُ وإنْ شاءَ ادخلهُ الجنة.

الله أكبر الله أكبر
الله أكبر الله أكبر
اشهد أن لا إله إلا الله
اشهد أن لا إله إلا الله
اشهد أن محمداً رسول الله
اشهد أن محمداً رسول الله
حي على الصلاة حي على الصلاة
حي على الفلاح حي على الفلاح
الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله

رواه الامام احمد — وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة	الفجر	الشروق	الظهر	العصر	المغرب	العشاء
مكة المكرمة	٥,٣٠	٦,٤٥	١٢,٣٥	١٥,٥٤	١٨,٢٢	١٩,٥٢
المدينة المنورة	٥,٣١	٦,٤٦	١٢,٣٥	١٥,٥٢	١٨,١٩	١٩,٤٩
القدس المحتلة	٤,٥١	٦,١٣	١١,٥٤	١٥,٠٥	١٧,٣٢	١٨,٤٨
ابو ظبي	٥,٣٢	٦,٤٧	١٢,٣٧	١٥,٥٤	١٨,٢١	١٩,٣٢
المنامة	٤,٤٩	٦,٠٥	١١,٥٢	١٥,٠٩	١٧,٣٦	١٨,٤٨
الجزائر	٦,٠٠	٧,٢٧	١٣,٠٣	١٦,٠٧	١٨,٣٤	١٩,٥٦
الخرطوم	٤,٥٨	٦,٠٩	١٢,٠٥	١٥,٢٦	١٧,٥٦	١٩,٠٣
الكويت	٥,٠٢	٦,٢٠	١٢,٠٥	١٥,١٨	١٧,٤٥	١٨,٥٩
الرباط	٥,٤١	٧,٠٢	١٢,٤٣	١٥,٥٠	١٨,١٨	١٩,٣٦
الرياض	٥,٠٤	٦,١٩	١٢,٠٩	١٥,٢٦	١٧,٥٢	١٩,٢٢
الدوحة	٤,٤٥	٦,٠٠	١١,٤٨	١٥,٠٥	١٧,٣٣	١٨,٤٤
القاهرة	٥,٠٠	٦,٢٧	١٢,٠٩	١٥,٢٢	١٧,٤٩	١٩,٠٨
بيروت	٤,٥٠	٦,١٤	١١,٥٢	١٥,٠١	١٧,٢٩	١٨,٤٧
بغداد	٥,١٥	٦,٣٨	١٢,١٨	١٥,٢٦	١٧,٥٣	١٩,١١
تونس	٥,٣٢	٦,٥٨	١٢,٣٥	١٥,٣٩	١٨,٠٧	١٩,٢٦
جيبوتي	٥,١٣	٦,٢٤	١٢,٢٢	١٥,٤٣	١٨,١٨	١٩,٢٣
دمشق	٤,٤٧	٦,١٠	١١,٥٠	١٤,٥٨	١٧,٢٦	١٨,٤٢
دبي	٥,٣٠	٦,٤٦	١٢,٣٣	١٥,٥٠	١٨,١٨	١٩,٢٩
صنعاء	٥,١١	٦,٢١	١٢,١٨	١٥,٣٩	١٨,١١	١٩,١٨
طرابلس الغرب	٥,١٩	٦,٤٢	١٢,٢٢	١٥,٣١	١٧,٥٩	١٩,١٥
عمان	٤,٤٩	٦,١٠	١١,٥٢	١٥,٠٣	١٧,٢٩	١٨,٤٥
مسقط	٥,١٦	٦,٣١	١٢,٢٠	١٥,٣٩	١٨,٠٦	١٩,١٧
مقديشو	٤,٥٨	٦,٠٦	١٢,١٣	١٥,٣١	١٨,١٥	١٩,٢١
نواكشوط	٦,١٣	٧,٢٥	١٣,١٨	١٦,٣٨	١٩,٠٨	٢٠,١٧
انقرة	٥,٠١	٦,٣١	١٢,٠٣	١٥,٠٥	١٧,٣٢	١٨,٥٦
طهران	٥,١٥	٦,٤٠	١٢,١٨	١٥,٢٤	١٧,٥١	١٩,١١
اثينا	٥,٣٩	٧,٠٥	١٢,٣٩	١٥,٤٣	١٨,١١	١٩,٣٣
برلين	٥,٢٩	٧,٠٩	١٢,٢٢	١٤,٥٦	١٧,٣٠	١٩,٠٤
بروكسيل	٦,٠١	٧,٤٢	١٢,٥٨	١٥,٣٧	١٨,١٠	١٩,٤٤
باريس	٦,٠٨	٧,٤٦	١٣,٠٥	١٥,٥٠	١٨,٢٢	١٩,٥٣
جنيف	٥,٤٨	٧,٢٧	١٢,٥٠	١٥,٣٩	١٨,١١	١٩,٤١
روما	٥,٢٣	٦,٥٥	١٢,٢٤	١٥,٢٢	١٧,٥١	١٩,١٨
سارايفو	٤,٥٩	٦,٣٣	١٢,٠١	١٤,٥٦	١٧,٢٥	١٨,٥٣
ستوكهولم	٥,٢١	٧,٠٥	١٢,٠٣	١٤,١٦	١٦,٥٦	١٨,٣٣
كوبنهاغن	٥,٣٦	٧,١٨	١٢,٢٤	١٤,٥٠	١٧,٢٦	١٩,٠٣
لندن	٥,٢٠	٧,٠٠	١٢,١٦	١٤,٥٢	١٧,٢٦	١٩,٠٠
مدريد	٦,٢٨	٧,٥٨	١٣,٣٠	١٦,٣٠	١٨,٥٧	٢٠,٢٢
نيقوسيا	٥,٠٠	٦,٢٤	١٢,٠١	١٥,٠٩	١٧,٣٦	١٨,٥٥
واشنطن	٥,٢١	٦,٤٩	١٢,٢٤	١٥,٢٦	١٧,٥٢	١٩,١٥
اوتاوا	٥,١٥	٦,٥٣	١٢,١٨	١٥,٠٩	١٧,٣٨	١٩,١١

* تقويم المركز الاسلامي في آخن - المانيا. ** يرجى مراعاة التوقيت الصيفي.